

الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. (الماضي والحاضر والمستقبل)



د. أحمد ماجد

باحث في الشؤون السياسية

ملخص الدراسة

انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وإنهاء الخلافة عام ١٩٢٤م، سرّع في ولادة تيارات فكرية جذرية عملت على استيراد الأفكار الغربية، مستفيدة من عامل الإحباط الذي أصاب الأمة الإسلامية من جهة، ووجود جالية أجنبية كبيرة من جهة ثانية، وتردي الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية من جهة ثالثة.

ظهرت هذه الأفكار على شكل منظومات علمانية تستنسخ التجربة الغربية بنموذجيها الشرقي والغربي كحلّ وبديل عن المنظومة الإسلامية التي لم تستطع أن تحافظ على وحدتها، وهذا الأمر وإن قدّم نفسه باعتباره نموذجاً فكرياً إلا أنّه سرعان ما تحوّل إلى مورد صراع بين المنظومتين للاستئثار بالعالم الإسلامي.

إن اللبنة الأولى للأحزاب الشيوعية واليسارية المؤلفة من الأجناب والأقليات الدينية، نلاحظ أنّ هذه الأحزاب سلكت طريقاً مختلفاً عن السياق العام للأحزاب والتوجهات السياسية العربية التي ظهرت بعد سقوط الدولة العثمانية، فهذه الأحزاب كانت منشدة منذ بدايتها إلى قاعدة أيديولوجية غريبة عن المجتمع إلى حدّ فقدت معه القدرة على استيلاد برامج سياسية تعبّر عن المصلحة الحقيقية للمجتمعات.

من بعد النكبة أخذت الأحزاب الشيوعية العربية تُمنّي النفس بالتمدد داخل مجتمعاتها؛ من خلال التركيز على حقّ تقرير المصير للشعوب، ومالت للعمل على حيازة الشرعية لعملها من خلال الحصول على التراخيص.

بدءاً من خمسينيات القرن العشرين، بدأ الشيوعيون يتمددون إلى المؤسسات العسكرية في بلدانهم، فأسس الحزب الشيوعي العراقي رابطة العسكريين الوطنيين الأحرار، وتعاون مع منظمة الضباط الأحرار، موفراً العامل الذاتي للثورة التي نجحت في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨م في القضاء على الحكم الملكي الذي دخل بسياسة الأحلاف، وكان جزءاً من حلف بغداد، وأقيم من أجل مواجهة التمدد الشيوعي.

شهدت ستينيات القرن العشرين مدخلاً لمراجعة الذات وإنجازاتها لاسيما عند الأحزاب القومية؛ حيث مالت مجموعات من البعث إلى أيديولوجية اليسار، وتابعهم على هذا المنوال حركة القوميين العرب، فحملت المرحلة نمواً لليسار، جلب معه جملة من الإشكاليات.

وجدت الأحزاب الشيوعية نفسها بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وحيدة، إذ فقدت قاعدتها الأيديولوجية التي اتكأت عليها منذ التأسيس، ولم تكن بوضعية تسمح لها بإعادة النظر بمقولاتها، فدخلت في سبات عميق، وخسرت مواقعها، فلم تعد مؤثرة كتنظيمات سياسية، كما أنّ هذه الأحزاب قد تعرضت إلى نكسة كبيرة في ظل ثورات الربيع العربي.

الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. (الماضي والحاضر والمستقبل)



د. أحمد ماجد

باحث في الشؤون السياسية

مقدمة:

مع الضعف والوهن الذي أصاب الدولة العثمانية، أخذت تتسلل إلى المجتمعات الإسلامية الأفكار الغربية؛ التي فتنت المثقف المسلم، وجعلته يفكر باستلهاام النموذج الغربي باعتباره الأتم؛ لأنه استطاع أن يُخرج الدول الأوروبية من مرحلة الضعف إلى القوة، وإن كانت هذه الأصوات بدأت خافتة في البداية، واكتفت بالجانب الإصلاحي، ولكنَّ انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م، سرَّع في ولادة تيارات فكرية عملت على استيراد الأفكار الغربية، مستفيدة من عامل الإحباط الذي أصاب الأمة الإسلامية من جهة، ووجود جالية أجنبية كبيرة من جهة ثانية، وتردي الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية من جهة ثالثة.

وقد ظهرت هذه الأفكار على شكل منظومات علمانية تستسخ التجربة الغربية بنموذجيها الشرقي والغربي كحلٍّ وبديل عن المنظومة الإسلامية التي لم تستطع أن تحافظ على وحدتها، وهذا الأمر وإن قدَّم نفسه باعتباره نموذجاً فكرياً إلا أنه سرعان ما تحوّل إلى مورد صراع بين المنظومتين للاستئثار بالعالم الإسلامي.

من هنا تتأتى أهمية هذا البحث العلمية؛ إذ إنَّه يكشف الأرضية التي تحركت من خلالها هذه الأفكار الغربية البعيدة عن روح الأمة، وكيفية استفادتها من واقع الانقسام والشرذمة، وغياب المشروع النهضوي الإسلامي الفاعل.

ومن خلال هذه البحث سيتم إظهار الانطلاقة الملتبسة لهذه الحركات السياسية؛ حيث يمتزج فيها السياسي بالأيديولوجي، والمشروع النهضوي بالاستراتيجيات الدولية، لذلك تحضر مصالح الدول الفاعلة مع أحلام الشعوب وآمالها بالتححر والتقدم، مستفيدة من واقع الأقليات وقلقها، ومن الحالة المزرية التي وصلت إليها المجتمعات الإسلامية على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي.

بالتالي، سيحاول هذا البحث أن يُعيد رسم مشهدية ولادة الحركات الشيوعية في العالم العربي، كما سيُلقي الضوء على الأحزاب والحركات الشيوعية واليسارية، مُظهرًا تركيبها التنظيمي وآلية عملها، والاتصال والانفصال بينها وبين السلطة السياسية الحاكمة، سواء أكانت سلطة وصاية في البداية أو دولة وطنية في مرحلة لاحقة، مبرزين دورهم في الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية، وآليات قبولهم أو رفضهم المشاركة في الحياة العامة، وأثر ذلك عليهم من خلال الانشقاكات والتفرعات فيهم.

واعتمد هذا البحث على البنائية الوظيفية التي تعتبر، بحسب إيستون، النظام نسقاً أو مجموعة من المتغيرات المعتمدة على بعضها البعض والمتفاعلة فيما بينها، وأثر ذلك على البيئة المحيطة بالنظام، وقال: إن الحياة السياسية على أيّ مستوى يمكن النظر إليها كنظام للنشاط والسلوك السياسي الذي يمكن فصله للدراسة عن غيره من الأنظمة على الأقل للتحليل.

وشدد على الوحدة الاجتماعية، وضرورة المساواة في الأجور، وهدم المؤسسات الرجعية، ووصل إلى القول بضرورة: «وضع نظام يكبح جماح الجبايرة الظالمين، ويخفف عن الضعفاء المظلومين»^(١).

ومن بعده أخذت تكثر السُّبحة فظهر فرح أنطون وسلامة موسى، ومصطفى حسين المنصوري.

ولم يبق التأثير في إطار التنظير الثقافي إنما تعداه إلى المجتمعات العربية الإسلامية خاصة في أوساط الطبقة العمالية الفنية، التي تشكلت بمعظمها من عناصر أجنبية، وفدت إلى هذه البلاد، ولكنها لم تنقطع عن الجو الثقافي في مجتمعاتها الأوروبية.

من هنا نلاحظ أن عام ١٨٩٩م شهد ولادة أول نقابة لعمال السجاير على يد جوزيف روزنتال^(٢)، فالأجانب تحكموا بالوظائف الإدارية، وهذا ما أشار إليه تقرير «لجنة بلنر» عام ١٩٢٠م حين أورد أن المصريين لا يشغلون إلا أقل من ربع الوظائف الكبيرة^(٣).

وبعد ذلك ظهر في بيروت معالم حراك شعبي فريد من نوعه في ظل الدولة العثمانية؛ إذ قامت مجموعة من الشباب عام ١٩٠٧م^(٤) بالاحتفال بعيد العمال، وهذا الأمر ليس غريباً؛ فالإرساليات الأجنبية ونظام الامتيازات ساهما في بروز طبقة جديدة من المثقفين

من هنا، لم يتم الاستغراق بالبعد التاريخي، فمساحة البحث غير واسعة، والاستغراق في التاريخ قد يؤدي للدخول في تفاصيل لا يمكن لبحث بهذا الحجم أن يُلبّي احتياجاته، لذلك سيتم التركيز على الوظائف النظامية التي هي ضرورية لإظهار النظام الكلي، الذي يتحكم بهذه الأحزاب والحركات، أي: النظام العام الحاكم، وهذا ما يسمح للبحث بعرض ما يريد الحديث عنه دون إخلال بالمحتوى.

وهذا الاستخدام المنهجي لا يلغي اعتمادنا على أدوات المنهج التاريخي، لا سيما فيما يتعلق بالعودة إلى المصادر والأدبيات الأصلية لهذه الحركات؛ من أجل إعطاء صورة حقيقية لها، وبالتالي عدم التحكم بالمعطيات بشكل يحرف البحث عن هدفه المتمثل بعرض وجهة نظر هذا الاتجاه الفكري، ولعل هذا ما سيدفعنا إلى استخدام المنهج الوصفي التحليلي في قراءة الرؤى الفكرية والسياسية لهذه الحركات.

المحور الأول: الأحزاب الشيوعية العربية.. الإرهاصات والولادة:

لا يمكن عزل ولادة التيار اليساري عن السياق العام للحدثة الغربية، فهو قراءة خاصة للواقع الغربي مع الالتزام بالنظرة الحاكمة. وإن اليسار الذي انطلق في نموه الأخير مع كارل ماركس، أقام نظريته حول التشكيلات الاجتماعية وتعاقبها التاريخي، فاعتبر آليات التطور الرأسمالي صورة جديدة عن الحياة البشرية، لكنه لم يقرّها ككمال نهائي، فهي بنظره عملية صيرورة مفتوحة، يستطيع من خلالها الإنسان أن يتجاوز الرأسمالية ويصل إلى أكمل وأتم وأعمق ما في الحدثة وهو تحرير الحياة البشرية وقيام مجتمع اللاتطبقات واللدولة.

وهذه النظرة أخذت تتسلل إلى العالم العربي -الإسلامي؛ إذ مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نادى شبلي الشميل بالاشتراكية، وأخذ يُنظر لها عبر الدعوة لتبني المنهج العلمي كبديل لفكر الغيبي، فرفض التعصب الطائفي والقومي،

(١) راجع: حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، الطبعة ٦، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، الصفحة ٣٠٦.

(٢) عبد العظيم محمد رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر، الطبعة ٢، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٣م)، الصفحة ٥٠٩.

(٣) رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، الطبعة ١، (القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦م)، من الصفحة ٩٨ إلى الصفحة ١٠٢.

(٤) قيل: إن المحتفلين كانوا يعلقون شرائط حمراء على صدورهم. وقيل: إنهم غرسوا شتلة شجرة أطلقوا عليها اسم شجرة الحرية. ويورد الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوار» القصة التالية: «في سنة ١٩٠٧م، والبلدان العثمانية بأسرها رازحة تحت نير الحكم الأتوكرراطي، تن من جور عمال السلطان عبد الحميد، كان يعيش في بيروت قبضة من الشبان المستعيرين، يرون ما يراه مواطنوهم، ويشكون شكواهم، ولكنهم كانوا من القلائل الذين يفكرون بعمل شيء.. أما قصة احتفالهم أول نوار فسمعتها من ثلاثة منهم، في مناسبات متباعدة. وجرى ذلك في عام ١٩٠٧م في محلة الروشة ببيروت»، انظر: محمد دكروب، جذور السنديانة الحمراء، (بيروت، دار الفارابي)، الصفحة ١٠١.

١- تحكمت بها المصالح الاستراتيجية للدولة السوفييتية^(٢):
فالثورة الروسية فتت النخب التي انجذبت باتجاهها
بمعزل عن وجود بنية فكرية أيديولوجية مؤسّسة،
بالتالي كان هناك ميول وولاء للمركز
بعيداً عن النظرية، فالنخبة الأولى لم
تتعرف على ماركس وإنجلز ولينين،
إنّما تواصلت مع نصوص تفسيرية
تُهيمن عليها الروح الستالينية،
وعبر وصاية الكومنترن^(٣)، وهكذا
بات معيار الأممية الوفاء للدولة
السوفييتية، والدفاع عن مواقفها
حتى التكتيكية، ورفعها إلى مرتبة
النظرية، وتكييف النظرية وفقاً لها،
ورسم السياسات القومية على أساسها^(٤).

وهذا الانقياد لدولة القاعدة، جعل اليسار لا يتنبه
إلى خصوصية الموقف السوفييتي من القضايا التي
تعامل معها. فعندما تحوّلت الشيوعية إلى دولة بعدما
وصلت إلى الحكم، أخذت تعمل على تعميم تجربتها
الأيديولوجية، وكانت ترى في الهجرة اليهودية أملاً
في إقامة مجتمع اشتراكيّ يكون نواة لمجتمع أكبر
قد يشمل الشرق العربيّ بمجمله، بالتالي توجه إلى
المجموعة القادرة على تنفيذ رؤيته.

وهذا الأمر لا يمكن أن يتوفر إلا بالنخب اليهودية
التي تتبنى نفس الرؤى الأيديولوجية من جهة،
والتركيبة القومية الملائمة على أخذ المعلومات
وتعميمها من جهة أخرى. ومن خلال هذا الأمر،

(٢) انظر: محمد سيد رصاص، السوفييت والأحزاب الشيوعية العربية،
ضمن كتاب الأحزاب والحركات اليسارية، تحرير: فيصل دراج ومحمد
جمال باروت، (دمشق، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دون
تاريخ)، الصفحة ٤٠.

(٣) الشيوعية الدولية أو الكومنترن منظمة دولية شيوعية بدأت
في موسكو خلال شهر مارس ١٩١٩م. ويقصد بالأممية المحاربة
بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك القوة المسلحة، من أجل
إسقاط البرجوازية الدولية وإنشاء الجمهورية السوفييتية الدولية
كمرحلة انتقالية إلى الإلغاء الكامل للدولة.

(٤) شمس الدين الكيلاني، الأحزاب الشيوعية والقضايا القومية، ضمن
كتاب الأحزاب والحركات اليسارية، المصدر نفسه، الصفحة ٥٢.

[المسيحيين] تبنت العلوم الغربية، ومالت إلى اعتبار
نفسها جزءاً من هذه الحضارة^(١).

يُضاف إلى هذين السببين: حضور الأفكار
الاشتراكية في الهجرة اليهودية،
التي بدأت تتوافد باتجاه فلسطين
بعد مؤتمر بازال الذي عُقد عام
١٨٩٧م، فبعض هؤلاء المهاجرين
كان مرتبطاً بالحركة الاشتراكية
الديمقراطية الأوروبية. ولكن
هذه الإرهاصات لم تعرف
طريقها لتتحول إلى تيار سياسي
إلا بعد انهيار الدولة العثمانية؛
حيث أخذنا نلمح ولادة تيار

جديد في الواقع العربي استفاد من العناصر التي
أشرنا إليها لبث الدعوة إلى إقامة مجتمع شيوعيّ،
مستفيداً من ظروف العالم العربي بعد انفصاله
عن الدولة العثمانية؛ حيث ساد الطموح الأقليات
للتساوي مع الأكثرية؛ التي أخذت تعاني من الضياع
والإحباط بالإضافة إلى القهر الاجتماعي والسياسي
والاقتصادي.

المحور الثاني: نشأة الأحزاب الشيوعية.. من البدايات حتى النكبة:

بعد أن رأينا اللبنة الأولى للأحزاب الشيوعية
واليسارية المؤلفة من الأجانب والأقليات الدينية،
نلاحظ أنّ هذه الأحزاب سلكت طريقاً مختلفاً
عن السياق العام للأحزاب والتوجهات السياسية
العربية التي ظهرت بعد سقوط الدولة العثمانية،
فهذه الأحزاب كانت منشدة منذ بدايتها إلى قاعدة
أيديولوجية غريبة عن المجتمع إلى حدّ فقدت معه
القدرة على استيلاد برامج سياسية تعبّر عن المصلحة
الحقيقية للمجتمعات، فهي في أطروحاتها وقعت في
أفخاخ متعددة:

(١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م، ترجمة
كريم عزقول، الطبعة ٣، (بيروت، دار النهار، ١٩٧٧م)، الصفحة ٦٤.

حوّل الحزب الشيوعي الفلسطيني المهيمن عليه من قبل اليهود إلى قائدٍ وموجهٍ ومؤسسٍ للأحزاب اليسارية العربية^(١)؛ إذ وبتوجيه من الكومنترن جاء إلى بيروت في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤م جوزيف بيرغر، وأخذ يعمل على تنظيم العناصر الشيوعية. وفي مصر استغل الكومنترن الأزمة التي تعرّض لها الحزب الشيوعي بعد محاربة السلطات المصرية له، وانفضاض معظم القيادات عنه، فقام في صيف العام

١٩٢٧م بإخضاع الحزب لسلطة الحزب الشيوعي الفلسطيني عبر إيفاد شيوعي يهودي متمكن إلى مصر للتعرف إلى الوضع وتجميع قوى الحزب المفكك^(٢).

فتبنى اليسار العربي لمقولات الاتحاد السوفييتي وتأثير اليهود والأجانب فيه، جعلته يقبل بالهجرة اليهودية التي تستوطن فلسطين،

واعتبروها من العناصر الإيجابية التي تدفع الأمة إلى الإمام، وهذا ما جعل الصراع بين مستعمر وشعب يعيش على أرض فلسطين، فغيّبت الحضور الاستيطاني اليهودي، فالحزب الشيوعي السوري اللبناني يقول: «إنّ العالم أجمع يجب أن يعرف ويقتنع بأن نضال العرب لأجل فلسطين هو قبل كلّ شيء نضال وطني ضد الاستعمار والاحتلال وفي سبيل الجلاء والديمقراطية»^(٣). وقال الحزب الشيوعي العراقي: «إنّ الشعب العراقي يرفض بإباء أن يحارب الشعب الإسرائيلي الشقيق»^(٤).

(١) بدأت الأفكار اليسارية تطلّ برأسها باكراً في لبنان، وقد تمثلت في بداية الأمر من خلال حديث بعض الصحف عن الثورة البولشفية كصحيفة الحقيقة والمعرض، اللتين نشرتا مقالات شرت فيه أهداف الثورة، وتلا ذلك عمل بعض الشخصيات من أجل هذه الغاية. انظر: مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤-١٩٢٦م، (بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٤م)، الصفحة ٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه، من الصفحة ١٧٢ إلى الصفحة ١٧٦.

(٣) قدرتي قلعي، التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، (بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م)، الصفحة ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٧٤.

٢- تميّزت لغة الأحزاب الشيوعية بجمودها العقائدي، فالصراع بالنسبة للشيوعيين يجب أن يركّز في إطار البعد الطبقي، ومواجهة الرأسمالية والدول الاستعمارية، بالتالي: «لا مصلحة في الحرب للكادحين العرب واليهود، بل للبورجوازية العربية العفنة»^(٥).

ووصلت الأمور إلى حدّ رفض الأحزاب الشيوعية للحرب في فلسطين، واعتبارها مؤامرة تسعى للقضاء على واحة الديمقراطية، وجاء

على لسان الحزب الشيوعي المصري: «إنّ اليهود يكوّنون اليوم شعباً ديمقراطياً، وتزداد سيطرتهم على حكومتهم يوماً بعد يوم، في حين أنّ الحكومة العربية في فلسطين حكومة فاشية، تعمل خادمة للاستعمار.. والقضاء على الدولة اليهودية، وإخضاع اليهود لهذه الحكومة العربية، معناه

القضاء على جزيرة الديمقراطية التي يمكن أن تكون ذات تأثير حسن على الجزء العربي في فلسطين، وتلعب دوراً إيجابياً في الشرق الأوسط»^(٦).

فهذه الأحزاب اعتمدت على لغة مصطنعة بُنيت على أرضية الاستقطاب لدولة القاعدة الأيديولوجية، فكانت غريبة عن المصالح الحقيقية للشعب، ونلمح هذا بشكل واضح في المغرب العربي، فالأحزاب الشيوعية هناك بقيت مستتبعة للحزب الشيوعي الفرنسي بتوجيه من الكومنترن، فركّزت على المطالب الفورية النابعة من صراع الطبقات، وضرورة تحقيق المطالب الفورية للكادحين على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مع العلم أنّ التحدي الحقيقي كان يتمثل في الخوف على ضياع الهوية، فالأحزاب الشيوعية العربية المغاربية غلبت الأيديولوجي على الواقعي المعاش فسعت إلى تحقيق استقطابين، فمن جهة إلى

تميّزت لغة الأحزاب الشيوعية بجمودها العقائدي، فالصراع بالنسبة للشيوعيين يجب أن يركّز في إطار البعد الطبقي، ومواجهة الرأسمالية والدول الاستعمارية، بالتالي: «لا مصلحة في الحرب للكادحين العرب واليهود، بل للبورجوازية العربية العفنة».

(٥) المصدر السابق.

(٦) قدرتي قلعي، تجربة عربي في الحزب الشيوعي، المصدر السابق، الصفحة ١٥٠.

تحلّ قضية فلسطين، وتلبّي مطالب العرب الذين لا يطلبون سوى إلغاء الانتداب، ومنح فلسطين إمكان إنشاء حكومة وطنية دستورية ديمقراطية.. وهو حلّ لصالح العرب واليهود على السواء؛ لأنّه يضع أساساً صالحاً لزوال التناحر والتباغض بين العنصرين، وحلول التعاون والتفاهم»^(٣).

وعندما تغيّر موقف الاتحاد السوفييتي بدلت هذه الأحزاب موقفها، وأصبحت تنادي بتقسيم فلسطين إلى دولتين، يقول الحزب الشيوعي المصري حول هذا الموضوع: «فلندرس حالة الشعب اليهودي: لقد عانى الشعب اليهودي في فلسطين اضطهاداً لمدة طويلة. إنّ الشعب اليهودي الفلسطيني يريد أن يحصل على استقلاله الذاتي، وإن فرض الوحدة مع العرب، تلك الوحدة التي يرفضها الشعب اليهودي، معناه أولاً أننا نناقض مبدأ حق تقرير المصير، وهو يعني ثانياً تحطيم هذه الوحدة، فهو سيؤدي حتماً إلى استمرار روح العداء بين الشعبين، وبذلك يجعل من كلا الشعبين مضاداً للآخر»^(٤).

بالإضافة إلى المطالب الطبقي والسياسية التي رفعتها الأحزاب الشيوعية العربية، عملت هذه الأحزاب على تعميم التحررية الاجتماعية، فدعت إلى تحرير المرأة وضرورة خروجها إلى العمل، وفي هذا المجال كانت أمينة رحال الشيوعية أول من رفعت الحجاب في بغداد^(٥).

٣ - خضعت هذه الأحزاب لمشكلة في بنيتها الأساسية، تتمثل في خضوعها لسلطة كلية تسيطر على مركز القرار لديها، مما أفقدها المرونة في اتخاذ القرارات، فكانت شبيهة بالحزب الأم الذي غلب عليه حضور شخصية ستالين، لذلك نلاحظ مركزية الأمين العام في الأحزاب الشيوعية العربية،

الاتحاد السوفييتي كنموذج لمجتمع نجح في تحرير الشغّالين، وكمدافع عن الشعوب المضطهدة، ومن جهة أخرى، نحو فرنسا، إلى الحد الذي تهدف فيه المطالب الفورية أساساً إلى المساواة في الحقوق مع الشغّالين الفرنسيين (إلغاء التبعية الأهلية، الانتخاب العام، ولوج النقابات)، ومدّ الترتيبات ذات الطابع الاجتماعي السارية في الوطن الأصلي إلى المستعمرة (ظروف العمل، التعليم المجاني والإجباري)^(١).

وهذا الإسقاط للغة العقائدية، لم يتوقف عند حدود استعارة الكلام السوفييتي عن صراع الطبقات، إنّما تناول الموقف من الهجرة اليهودية والقضية الفلسطينية ورؤية المستعمر معه، فعلى الرغم من الحملات الأيديولوجية التي شنت على الدول المنتدبة إلا أنّ تصاعد الفاشية في أوروبا دفع هذه الأحزاب إلى تأسيس جمعيات لمقاومة الفاشية، حتى إنّ لم يبق دولة لم تقم فيها جمعية من هذا النوع.

وهذه التبعية انعكست على مواقف هذه الأحزاب من القضايا التي تعاملت معها، فالحزب الشيوعي العراقي وقف إثر أحداث مايو (أيار) من عام ١٩٤١م إلى جانب ثورة الجيش العراقي بقيادة رشيد عالي الكيلاني على السلطة البريطانية، وأيد الألمان وعقد عليهم آمالاً كبيرة عليهم، وعندما عدّلت موسكو موقفها انقلبت نظرة الحزب إلى الثورة العراقية من ثورة وطنية إلى ثورة تخدم مصالح الفاشيست الألمان، وتهدف للقضاء على مطامح الناس في الحرية والاستقلال^(٢).

كما يظهر هذا الأمر أيضاً في موقف الأحزاب الشيوعية من موضوع تقسيم فلسطين، فهم أعلنوا في أدبياتهم السياسية عن ضرورة إقامة دولة واحدة متعددة الأعراق والديانات، وفي هذا قالت صوت الشعب: «والحكومة البريطانية تستطيع إن شاءت أن

(٣) المصدر السابق، الصفحة ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٤٤.

(٥) نبيل عبد الأمير ربيعي، حسين رحال رائد الفكر الماركسي في العراق، على الرابط:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=301186>

(١) جورج أوفيد، اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية ١٩٠٥-

١٩٥٥م، ترجمة محمد الشركي وعبد الجليل ناظم، الطبعة ١، (الدار

البيضاء، دار توبقال، ١٩٨٨)، الصفحة ١٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ٢٢٠.

مثل خالد بكداش في سوريا، ويوسف سلمان يوسف في العراق.

٤- مالت معظم الأحزاب الشيوعية إلى العمل السري في بدايتها، وتعزز هذا الأمر مع رفض السلطات السياسية ترخيص هذه الأحزاب، وهذا الأمر جعل السرية جزءاً من الأيديولوجية الحزبية، مما أوجد أشبه ما يكون بعقدة اضطهاد لدى الشيوعيين، جعلهم يتوجسون من الإعلان عن أنفسهم، وفي هذا المجال يروي ريمون أجيون أسباب انفصاله عن اتحاد أنصار السلام، فيقول: «بدأت أشعر أنهم حذرون أكثر من اللازم، خائفون دوماً من أي حركة؛ كانوا يتحدثون دوماً بحذر شديد وخوف شديد، وقلت في نفسي إذا كانت هذه الشيوعية فأنا لست شيوعياً»^(١).

المحور الثالث: الأحزاب الشيوعية من النكبة إلى النكسة:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتراجع دور الدول الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا)، أخذت الأحزاب الشيوعية العربية تُمنّي النفس بالتمدد داخل مجتمعاتها؛ من خلال التركيز على حق تقرير المصير للشعوب^(٢)، وهذا الأمر ترافق مع هجوم معاكس للولايات المتحدة التي عملت على ملء فراغ القوى الأوروبية التي أنهكت في الحرب العالمية الثانية، فبدأت بمواجهة المد الشيوعي كما أسمته، وحاولت أن تحاصره وتمنعه من التحرك، وعلى أساس هذه الرؤية، يمكننا أن نرى:

١- ميل الأحزاب الشيوعية العربية، وبتوجيه من الكومنترن، للعمل على حيافة الشرعية لعملها؛ من خلال الحصول على التراخيص، كما نادت بقيام

جبهات عريضة لتحقيق المصالح الوطنية للأمم المستعمرة، وهذا ما فعله الحزب الشيوعي العراقي حين تقدم بطلب تأسيس حزب باسم «حزب التحرر الوطني»^(٣)، وأقر في مؤتمره الوطني الأول عام ١٩٤٥م قيام جبهة وطنية عريضة. وفي سوريا حصل الأمر نفسه، وتمدد هذا التوجه إلى مصر، فسعت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني «حدثو»^(٤) إلى قيام جبهة وطنية مع حزب الوفد لاستعادة حريات الشعب المسلوبة، والكفاح المشترك لتحطيم القيود التي تخنق المجتمع المصري^(٥)، وفي مرحلة لاحقة دخلت «حدثو» منذ عام ١٩٥١م في تحالف مع الإخوان المسلمين لا سيما مع التيار الراديكالي للإخوان الذي يمثله صالح العشماوي والشيخ محمد الغزالي.

لكن هذه المحاولات اصطدمت بضغط أمريكي، تمثل بقيام السلطات العراقية بقمع الشيوعيين، ثم استغلت معارضته لاتفاقية بورتسموث، ومشاركتها بالوثبة العراقية ١٩٤٨م فاتهمته بتحريض الجماهير على الثورة؛ مستفيدة من نكبة فلسطين، ووجود مشاركة يهودية فاعلة في الحزب، فأصدرت حكماً بإعدام يوسف سلمان يوسف (فهد) وعضوي المكتب السياسي زكي نسيم وحسين الشبيبي، مما أصاب الحزب بضريرة عميقة.

وفي سوريا طلبت الولايات المتحدة من الحكومات السورية المتعاقبة تضيق الخناق على الشيوعيين، ووصل الأمر إلى ذروته عندما قام حسني الزعيم بانقلابه العسكري، الذي شدد رقابته على الحزب ومنعه من العمل، ولإلمعان في كسب ود الولايات

(٣) رياض رشيد ناجي، الحركة الوطنية في العراق ١٩٤٨-١٩٥٨م، (أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٧٧م)، الصفحة ٣٤.

(٤) أكبر الأحزاب الشيوعية المصرية، تشكل في يونيو/ يوليو ١٩٤٦م من تحالف: الحزب الشيوعي المصري وايسكرا ومنظمة الطليعة، وتآلف أول مجلس مركزي من هنري كوريل، سيد سليمان رفاعي، محمد شطا، كمال شعبان، عبده ذهب (ح.م) هليل شوارتز، شهدي عطية الشافعي، عبد المعبود الجبيلي، عبد الرحمن الناصر، إيمي ستون (ايسكرا) ولطفي (الطليعة)، رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، مصدر سابق، من الصفحة ٣٤٤ إلى الصفحة ٣٩٢.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ٢٩٤.

(١) رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، مصدر سابق، الصفحة ١٦٩.

(٢) بدأ العمل بهذه السياسة في أعقاب المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية «الكومنترن» المنعقد عام ١٩٣٥م، والذي طالب من الأحزاب الشيوعية الدخول في جبهات وطنية موحدة ضد الإمبريالية، أي: الدعوة إلى قيام أوسع التحالفات السياسية والشعبية ضد الفاشية والإمبريالية في هذه البلدان. انظر: خيرى سعادة، فهد والنهج اللينيني، (دار الرواد)، الصفحة ١٢١.

الضباط الأحرار، موفرًا العامل الذاتي للثورة التي نجحت في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨م في القضاء على الحكم الملكي الذي دخل بسياسة الأحلاف، وكان جزءًا من حلف بغداد، وأقيم من أجل مواجهة التمدد الشيوعي.

هذه الثورة أوصلت عبد الكريم قاسم إلى السلطة، ووضعت اليسار في موضع ملتبس؛ إذ تحول إلى عصا غليظة للسلطة من أجل مواجهة التيارات القومية من جهة، وأنهم بالمذابح التي وقعت في الموصل وكركوك.

وإن كان الحزب حاول أن يتبرأ من هذا الأمر عبر الحديث عن استخدام قاسم لبعض الرموز الموالية له، فهو منح ترخيصًا للحزب الشيوعي الجديد الموالي له برئاسة داود الصائغ وحرمة عن القديم برئاسة زكي خيري^(١).

مالت السياسة السورية نحو اليسار بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، ومحاولة الانقلاب الأمريكية الفاشلة سنة ١٩٥٧م، وهذا أفصح المجال أمام المجموعات اليسارية للتمدد باتجاه الجيش، فوصل اللواء الشيوعي عفيف البرزة إلى رئاسة الأركان، بالتالي سيطرت القوى اليسارية على المؤسسة العسكرية بالتحالف مع البعثيين والشيئكيين.

وبدأت هذه المؤسسة بخوض نقاش الوحدة مع مصر، فأثمرت جهودها ١٩٥٨م بإعلانها، ولكن هذه الوحدة لم تأتِ بإيجابيات على الحزب؛ إذ عُزل البرزة بعد شهر من الوحدة^(٢)، وحُظرت الأحزاب، الأمر الذي أدى إلى تهميش دور الحزب وملاحقة أعضائه، فتعرض إلى حملات قاسية أدت إلى مقتل فرج الله الحلو في السجون السورية، ولم يشفع لهذا الحزب تحالف الجمهورية المتحدة مع الاتحاد السوفييتي،

جميع الأحزاب الشيوعية جعلت همها الأول المطالب السياسية والاقتصادية، والثقافية الداخلية، ولذلك دعت إلى جبهات وطنية، وعندما كانت مؤثرة في الحكم كما في العراق أخذت موقفًا معاديًا للقومية؛ حيث قدّم الشيوعي العراقي الدعم والمساندة لحكومة عبد الكريم قاسم.

المتحدة الأمريكية بادر الزعيم بشن حملة ضده^(٣). وفي الأردن بعد أن شعرت الولايات المتحدة بإمكانية اختراق اليسار للمجتمع الأردني عملت على تطويق هذا الأمر؛ من خلال قانون مقاومة الشيوعية الذي حمل الرقم ٩١ لسنة ١٩٥٣م^(٤).

٢- رفعت هذه الأحزاب شعارات وطنية، فحلّت الخصوصية مكان الأممية، فجميع الأحزاب الشيوعية جعلت همها الأول المطالب السياسية والاقتصادية، والثقافية الداخلية، ولذلك دعت إلى جبهات وطنية، وعندما كانت مؤثرة في الحكم كما في العراق أخذت موقفًا معاديًا للقومية؛ حيث قدّم الشيوعي العراقي الدعم والمساندة لحكومة عبد الكريم قاسم، وهم أرادوا من ذلك إظهار أنفسهم كحزب وطني مستقيم^(٥).

وفي سوريا رفض خالد بكداش الوحدة مع مصر وترك سوريا، وفي البحرين انهار التحالف القومي الشيوعي عندما اختلفوا على تسمية الجبهة؛ حيث أراد القوميون تسميتها بـ «جبهة القوى القومية»، وأرادت «جبهة التحرير الوطني البحرانية» أن يطلق عليها «جبهة القوى التقدمية»؛ نظرًا لمعارضتها المفهوم القومي من منظور أممي^(٦).

٣- بدءًا من خمسينيات القرن العشرين، بدأ الشيوعيون يتمددون إلى المؤسسات العسكرية في بلدانهم، فأسس الحزب الشيوعي العراقي رابطة العسكريين الوطنيين الأحرار^(٧)، وتعاون مع منظمة

(١) NARA. G. 59: Joint WEEKA, 20/19 MAY 1950.

(٢) انظر: عبد الفتاح رشدان، التطور الديمقراطي في الأردن بين عامي ١٩٥٢-١٩٨٩م، مجلة قراءات سياسية، السنة ٤، العدد ٢، ١٩٩٤م، الصفحة ٩٠.

(٣) جريدة اتحاد الشعب، بغداد، العدد ٤، ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩م.

(٤) روزماري سعيد زحلان، الخليج العربي والمشكلة الفلسطينية، مصدر سابق، من الصفحة ٢٠ إلى الصفحة ٢١.

(٥) مجيد خدوري، العراق الجمهوري، الطبعة ١، (إيران، منشورات الشريف الرضي، ١٣٧٦ هـ)، من الصفحة ٤٥ إلى الصفحة ٤٦.

(٦) الصفحة ١٥٧.

(٧) أكرم الحوراني، مذكرات أكرم الحوراني، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م)، الجزء ٤، الصفحة ٢٦٠١.

حتى إذا تم الانفصال وسيطر البعث بعد ذلك على الحكم تحول الحزب إلى حزب غير فاعل في الحياة السياسية، يقتصر حضوره في بعض الأوساط الكردية ونحوها.

وفي مصر، حاول الشيوعيون منذ عام ١٩٤٦م تثبيت وجودهم في المؤسسة العسكرية، فقامت القلعة وهي جماعة مقرية من ايسكرا بجذب عدد من فنيي صيانة الطائرات، وأنشأت حدتو الجناح العسكري الذي ضم ٦٠ إلى ٧٠ ضابطاً^(١)، وعند اندلاع ثورة ٢٣ يوليو كان

من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة عضوان من حدتو أو مقربان منها، وهما خالد محيي الدين ويوسف منصور صديق، كما كان هناك بعض آخر من الضباط الأحرار المقربين لحدتو أشهرهم القاضي العسكري أحمد فؤاد، وضابط الدفاع الجوي أحمد حمروش^(٢)، لذلك سارعت حدتو إلى دعم الثورة، بينما وقفت المنظمة الديمقراطية الشعبية

والحزب الشيوعي المصري موقفاً سلبياً من الثورة، واعتبرتها تمثل المصلحة الأمريكية التي تريد أن تخرج بريطانيا من المنطقة.

وهذا الموقف عبّر عن وجهة نظر موسكو التي رأت في الثورة مؤامرة أمريكية^(٣)، واستمر حتى عام ١٩٥٦م الذي شهد تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي، واقترب الثورة من المنظومة الشرقية، الأمر الذي أدى إلى تعديل مواقف التيارات اليسارية مع استمرار الخلاف حول بعض القضايا الوطنية، واستمرت العلاقة بين الشيوعيين والنظام في مدّ وجزر إلى أن اندمجت الأحزاب الشيوعية في ١٩٦٥م بالاتحاد

(١) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الديمقراطية، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢م)، الصفحة ٢٨٩.

(٢) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: الجيش في السلطة، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢م)، من الصفحة ١١٥ إلى الصفحة ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١١٦.

الاشتراكي العربي (التنظيم الطليعي)^(٤).

٤- حضرت هذه الأحزاب في صفوف الأقليات الدينية والقومية، مما جعلها تأخذ مواقف منحازة لها، فالحزب الشيوعي العراقي أولى مسألة تقرير مصير الأكراد أولوية في مشروعه السياسي، فهو دعا إلى الاعتراف الكامل بالحقوق القومية للشعب الكردي^(٥)، وفي مصر شغلت مسألة الأقليات الأحزاب الشيوعية، وفي كنفها ولدت التيارات المطالبة بحق تقرير المصير؛ حيث نرى اهتماماً بالمشكلة السودانية والنوبية، وذهب

الشيوعيون المصريون والسودانيون إلى القول بوجوب حق تقرير المصير للشعب السوداني. وأكدوا في كتاباتهم على ذلك^(٦).

٥- بقيت الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي، تعاني من إشكالية الانقسام والوحدة، فهذه الأحزاب التي ولدت في أوساط ثقافية محددة، ضمت إلى المثقفين، مما جعلها تميل إلى التنظيم العقائدي بعيداً عن دراسة الواقع المعاش.

تتبعها مجموعات نخبوية تنتمي بمعظمها إلى المثقفين، مما جعلها تميل إلى التنظيم العقائدي بعيداً عن دراسة الواقع المعاش، وهذا ما أوجد هوة بين هذه التنظيمات والمجتمع، بل حتى داخل الإطار التنظيمي نفسه، فعندما كانت القيادات تتحاور حول الوحدة كانت تبعد الجماهير عن هذا النقاش، وعندما تتجزأ هذه الوحدة تبقى هشة قابلة للانكسار في كل لحظة.

٦- انخرطت هذه الأحزاب ضمن المشروع السوفييتي في الحرب الباردة، وكانت المعبر عن موقف موسكو ضمن بلدانها، لذلك كانت مواقفها تنطلق من الرؤية

(٤) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الديمقراطية، مصدر سابق، الصفحة ١٥١.

(٥) عبد الستار طاهر شريف، تاريخ الحزب الثوري الكردستاني، الطبعة الثانية، (بغداد، منشورات شور ششكير، ١٩٧٨م)، الصفحة ١٢١.

(٦) محمد عمر البشير، تاريخ الحركة الوطنية السودانية ١٩٠٩-١٩٦٩م، ترجمة: هنري رياض، الجنيد عمر، وليم رياض، (الخرطوم، دار الكتب السودانية، ١٩٨٠م)، الصفحة ٢٤٢.

الفترة التي تلت نكسة عام ١٩٦٧م، والمرحلة الثانية، التي ظهرت نتيجة الصحو الإسلامية التي بدأت مع انتصار الثورة في إيران، وتصادت بعد الاجتياح السوفييتي لأفغانستان، واغتيال الرئيس المصري أنور السادات.

المرحلة الأولى: النكسة والمراجعات:

شهدت ستينيات القرن العشرين مدخلاً لمراجعة الذات وإنجازاتها لاسيما عند الأحزاب القومية؛ حيث مالت مجموعات من البعث إلى أيديولوجية اليسار، وتابعهم على هذا المنوال حركة القوميين العرب، فحملت المرحلة نمواً لليسار، جلب معه جملة من الإشكاليات، يمكن أن نصنفها ضمن خانتين اليسار الجديد واليسار التقليدي:

١- اليسار الجديد:

وهو اليسار الناشئ عن تحوّل بعض القوميين إلى الماركسية، وتميّز هذا التيار بالخصائص التالية:

أ- تحوّل بعض التنظيمات القومية (بعض البعث، حركة القوميين العرب) إلى تبني الماركسية اللينينية، فالمنشقون عن هذه الأحزاب رأوا أنّ الأزمة التي تمرّ بها الأمة، ليست ناشئة عن مؤامرة الإمبريالية فحسب، بل تتحمل مسؤوليتها الأنظمة العربية التقدمية التي أخفقت في تعبئة الجماهير وتنظيمها وإعدادها وقيادتها على درب حرب التحرير الطويلة^(٥).

ب- مال اليسار الجديد إلى الصدام مع الأحزاب الشيوعية التقليدية، واعتبروها غير فاعلة مثلها مثل الأنظمة التقدمية البورجوازية الصغيرة، فبالنسبة لهم: «لقد نفذ الشيوعيون برنامجاً يمينياً متخلفاً.. إنّ البرنامج الذي خاض الشيوعيون تحت رايته نضالهم الوطني قد انبثق من فهم خاطئ لطبيعة القوى الطبقية، وللدور السياسي والوطني الذي قد تلعبه البورجوازية الكبيرة والإقطاعيون السياسيون في هذه

الاستراتيجية للدولة القاعدة، فالحزب الشيوعي العراقي وعلى الرغم من القمع الذي تعرض له على يد عبد الكريم قاسم إلا أنّه بقي مالياً له. وفي هذا المجال، كان زكي خيري شديد الوضوح حين قال: «إنّ حجب الاعتراف القانوني عن أقدم وأكثر أحزاب العراق السياسية نذير للديمقراطية.. ومع ذلك فإننا لم نعارض النظام الوطني القائم، بل سندافع عنه حتى النهاية، ونحن ننتقد كل مظهر سلبي في سياساته»^(١).

٧- بالإضافة إلى أماكن انتشار التيار اليساري التقليدي، أخذت تطفو على الوجه أحزاب شيوعية في قلب الجزيرة العربية، وكانت البذور الأولى في النصف الأول من الأربعينيات عبر حزب تودة^(٢)، ولكن الحزب تعرض للملاحقة، واتهم بالانقلاب على الشيخ سليمان فتّم ملاحقة أنصاره، فانكفأ عن الحياة السياسية ليعود للنشاط بعد الثورة الأمريكية على حكومة مصدق في إيران، التي دفعت عدداً كبيراً من المهاجرين إلى البحرين، الذين أضيفوا إلى الملاحقين العراقيين بعد إعدام فهد في العراق^(٣)؛ حيث نشط هؤلاء بالتبشير للأفكار الماركسية. وفي ديسمبر عام ١٩٦٢م أعلنت جبهة التحرير الوطنية البحرانية عن برنامجها المعلن «برنامج الحرية والاستقلال الوطني والديمقراطية والسلام»، وجعلت مهمتها الدفاع عن مصالح العمال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ضد تعسف الشركات وأصحاب الأعمال والسلطات^(٤)، ودعت إلى قيام دولة ديمقراطية متحررة من الجهاز الإداري الإنكليزي.

المحور الرابع: الأحزاب الشيوعية من النكسة إلى انهيار المنظومة الاشتراكية:

تقسم هذه المرحلة إلى قسمين؛ تمثلت الأولى في

(١) انظر: حنا بطاطو، العراق، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، الكتاب ٢، الصفحة ٢٥٨.

(٢) حسين موسى، البحرين النضال الوطني والديمقراطي ١٩٢٠-١٩٨١م، (قبرص، الحقيقة برس، ١٩٨٧م)، الصفحة ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٨.

(٤) روزماري سعيد زحلان، الخليج العربي والمشكلة الفلسطينية، مجلة المستقبل العربي، أبريل ١٩٨١م، العدد ٢٦، بيروت، الصفحة ١٦٠.

(٥) اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب، التقرير السياسي لاجتماع اللجنة التنفيذية الموسع في تموز ١٩٦٧م، مجلة الحرية البيروتية، العدد ٣٧٧، ٤ أيلول ١٩٦٧م.

الأحزاب تلعب أدوارًا جانبية غير فاعلة، يُضاف إلى هذا الأمر خضوع هذه الأحزاب لسياسة الاتحاد السوفييتي، وهذا ما أدى إلى:

أ- تخلي الأحزاب الشيوعية عن دورها، وانخراطها في النظم السياسية المتحالفة مع الاتحاد السوفييتي، وفي هذا المجال ضغطت موسكو عام ١٩٧٣م على الحزب الشيوعي العراقي لأخذ مواقف إيجابية من النظام، فاستجاب للأمر وفضّ علاقته بالحزب الديمقراطي الكردستاني وتحالف مع البعث. وفي سوريا انضم الحزب إلى الجبهة الوطنية وشارك في الحياة السياسية من خلالها.

ب- استمرت هذه الأحزاب في الانقسام على نفسها، وفي معظم الأحيان لم تتحكم المبررات السياسية والفكرية فيه، وإنما لعبت المصالح الفئوية والسلطوية الدور الأكبر؛ حيث انشق الحزب الشيوعي، وانضمّ الحزبان إلى الجبهة الوطنية التقدمية.

ج- تحملت الأحزاب الشيوعية وزر الماضي، فهي عندما وافقت على الاندماج داخل البنية السلطوية -إن مباشرة كما حدث في مصر، أو بالواسطة كما حصل في سوريا والعراق- قضت على إمكانية لعب دور في مجتمعاتها أو جعلته محدودًا، فعندما فتحت السلطة المصرية المنابر، شارك الشيوعيون واليساريون في الحياة السياسية، لكن ضمن أطر محدودة، ومحسوبة من السلطة.

المرحلة الثانية: الصحوة الإسلامية:

شهد عام ١٩٧٩م الثورة في إيران تلاها بعد عامين اغتيال السادات على يد عناصر إسلامية، وتنازلت الأحداث بعد ذلك، وكان الفاعل فيها التيار الإسلامي، الذي أخذ يتحوّل لأول مرة منذ سقوط الدولة العثمانية إلى بديل حضاري، يحمل في طياته إمكانية تحرير الأمة من سطوة الاستعمار والتبعية للغرب والشرق، في هذه الأجواء، بدأ التيار اليساري

المرحلة. فالستالينية ما زالت مسيطرة على برنامج الحزب الشيوعي^(١)، ووصل الأمر بمنظمة العمل الشيوعي في لبنان إلى حدّ إنكار شيوعية الحزب الشيوعي اللبناني، واعتبرته غير جدير بهذا الاسم^(٢).

ج- وقفت هذه الأحزاب الجديدة مواقف حادة من البورجوازية العربية، واعتبروا أنّ هذه الطبقة من أصحاب الملايين العرب من تجار وصيارفة وإقطاعيين وملاك كبار وأمراء وشيوخ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالإمبريالية العالمية: «ومعنى هذا أنّ الرجعية العربية [...] لا يمكن أن تكون إلى جانب مصالحها المتوقف استمرارها على بقاء استمرارها على بقاء الإمبريالية، وبالتالي لا يمكن أن تكون في صفّ الجماهير»^(٣).

د- دعت هذه الأحزاب إلى حرب تحرير شعبية ثورية، تعتمد السياقات التي اعتمدتها الثورة الكوبية والفيتنامية؛ حيث استطاعت: «أنظمة وطنية ثورية ذات تكوين طبقيّ بروليتاري وفلاحي فقير، تضع طاقات البلاد المادية والثقافية والمعنوية في خدمة معضلات التحرر الوطني والثورة الوطنية الديمقراطية بتصفية كافة الامتيازات الطبقية المادية والمعنوية وبناء القاعدة المادية الصلبة للاستقلال الاقتصادي والسياسي بالتصنيع الثقيل والزراعة الثقيلة المميكنة وكهربة البلاد»^(٤).

و- عملت هذه الأحزاب على إنتاج أحزاب لها خصوصية وطنية، فأنشأت في كلّ دولة حزباً خاصاً به، يقود العملية السياسية.

٢- اليسار القديم:

خرجت الأحزاب بعد مغامراتها السياسية والعسكرية منهكة وضعيفة، لذلك أخذنا نرى هذه

(١) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حول أزمة حركة المقاومة الفلسطينية، الطبعة ٢، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٠م)، من الصفحة ١٠٩ إلى الصفحة ١١٠.

(٢) مجلة الحرية، بيروت، العدد ٥٧٤، الصفحتان ٥ و٦.

(٣) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، استراتيجية تحرير فلسطين، عمان، ١٩٦٩م، الصفحة ١٤.

(٤) طارق إسماعيل، اليسار العربي، ترجمة محمود فلاح، (دمشق، دار قتيبة، لا. ت)، الصفحة ١٩٣.

مال الحزب الشيوعي والحزب الشيوعي الموحد إلى التحالف مع السلطة، وخاصة بعد أحداث عام ١٩٨٠م؛ حيث وجدت هذه الأحزاب نفسها بين خيار السلطة التي تشترك معها في رؤيتها للعلمانية أو الجماعات الإسلامية التي تريد دولة دينية، فأخذت خيارها بالتحالف مع الدولة، خاصة أن هذه الأحزاب بنت تحليلها على التمييز بين الرؤية الداخلية للسلطة والرؤية الخارجية، فغلبت الثاني بما يحمله في طياته من معاداة للصهيونية والأمبريالية^(٢).

د- انخرط العديد من الشخصيات الثورية اليسارية في الدولة، وظهر هذا الأمر بشكل خاص في البحرين والخليج العربي؛ حيث لم تقم هذه الأحزاب على قاعدة عمالية، إنما نبعت من موقف سياسي يعبر عن هوية مغايرة لهوية السلطة، ويمكن أن تلتمح بها عندما تتعرض مصالحها للتهديد، خاصة أنها أصبحت ميسورة ومكتفية بذاتها وضمن الهيكل العام للدولة.

المحور الخامس: الأحزاب الشيوعية من انهيار المنظومة إلى الربيع العربي:

وجدت الأحزاب الشيوعية نفسها بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وحيدة، إذ فقدت قاعدتها الأيديولوجية التي اتكأت عليها منذ التأسيس، ولم تكن بوضعية تسمح لها بإعادة النظر بمقولاتها، فدخلت في سبات عميق، وخسرت مواقعها، فلم تعد مؤثرة كتنظيمات سياسية، كما أن هذه الأحزاب قد تعرضت إلى نكسة كبيرة بعد سلسلة من الأحداث منها:

(٢) وهي فكرة تعزى إلى خالد بكداش قالها قبل ثلاثة عقود، وتشير إلى أنه لو نظر إلى السلطة من منظور الوضع الداخلي لكان في المعارضة، لكنه ينظر إليها من منظور العلاقات الدولية الذي يضعها في خانة الدول المعادية للإمبريالية، ولهذا يستوجب التحالف معها.

تراجعها، ويمكننا أن نلاحظ:

أ- بدأت مرحلة من المراجعات للمرحلة السابقة، وانسحاب عدد من المناضلين اليساريين وتحولهم إلى سياسيين أصحاب رأي وموقف أو مثقف أو مدافع عن حقوق الإنسان، فالشيوعيون أدركوا عدم قدرتهم على إحداث تغيير في الواقع السياسي، فحاولوا أن يجدوا مكاناً لهم في إطار جديد، وفي هذا المجال نلاحظ أن نور الدين بن خضر، وهو من مؤسسي حركة آفاق (برسبكتيف)، أصبح، بعد تجربة السجن، مفكراً صاحب رأي شخصي، ومن ثمّ سينتقل إلى تأسيس منظمة العفو الدولية في تونس، واستقر بالعمل الثقافي كناشر^(١).

ب- مالت بعض الأحزاب الشيوعية إلى اتجاهات ذات طبيعة قومية، فدخلت في صراعات مع السلطة، فبعد خروج الحزب الشيوعي العراقي من تحالفه مع السلطة انتقل إلى الكفاح المسلح في شمال العراق، وهناك انقسم الحزب إلى حزبين عام ١٩٩٢م؛ أحدهما بقيادة عربية، وآخر بقيادة كردية^(٢).

ج- تحولت العديد من القوى اليسارية إلى أدوات بيد السلطات الحاكمة لمواجهة التيار الإسلامي بشكل اختياري، أو بحكم التناقض العقائدي بين هذين الطرفين، وفي هذا المجال تصادم اليسار التونسي مع الإسلاميين لاسيما في الجامعات، وهذا الأمر تكرر في مصر؛ حيث استفادت السلطات الحاكمة من التناقض بين هذين الطرفين، فأخذت تدعم طرفاً ضد الآخر بحسب مصالحها السلطوية. وفي سوريا

(١) عبد الجليل التميمي، الدور السياسي والثقافي لبرسبكتيف والبرسبكتيفيين في تونس المستقلة، (تونس، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ٢٠٠٨م).

(2) Michael .M. Gunter , The Kurdish Predicament in Iraq , (London, 1999), pp.67-126.

١- انهيار اليمن الجنوبي ودخول الأجنحة المتعددة في صراعات دموية حول السلطة^(١)، أدت إلى هروبها نحو الوحدة مع اليمن الشمالي، فهذه الوحدة أفقدت اليسار شعاراته، خاصة أنّ الاتفاق الذي وُقّع مع الشمال جاء مختلاً، ومن دون الرجوع إلى الهيئات الحزبية؛ مما أدى إلى انقسام داخل الحزب الاشتراكي. وزاد الأمر تعقيداً تملّص اليمن من نصوص الاتفاقية المجففة عام ١٩٩٤م وملاحقته للحزب، مما دفع

بعض قيادات الاشتراكي للمطالبة بالعودة إلى الوضع الذي قائماً قبل العام ١٩٩٠م دون العودة إلى هيئات الحزب وقواعده، مما أدى إلى توجيه حملة عسكرية باتجاه الجنوب، والقضاء على الانفصال، وحدث انقسام في صفوف الحزب.

٢- هُمّش الشيوعيون واليساريون في لبنان بعد انتهاء الحرب اللبنانية، فعلى الرغم من مشاركتهم إلى جانب

القوى الوطنية والإسلامية في لبنان، ولعبهم لدور فاعل في إطار جبهة المقاومة الوطنية، إلا أنّ الدول الراعية لاتفاق الطائف لم تُدخل الحزب الشيوعي في الحياة السياسية، وحوّلت إلى حزب هامشيّ يلعب أدواراً مضبوطة في العمل النقابي دون تأثير سياسيّ فاعل.

٣- في مصر، انفضت العناصر الشيوعية عن حزب التجمع، وحاولت أن توجد لنفسها إطاراً جديداً لها، ففي عام ١٩٨٩م ظهر حزب العمال الشيوعي الموحد، والذي كان نتاج توحيد حزبيّ العمال الشيوعي والحزب الشيوعي المصري، ولكن السلطة سارعت إلى ضربه عقب الوحدة مباشرة، مما أفقده فاعليته،

(١) شهدت اليمن الجنوبي في ١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م صراعاً بين أجنحة الحزب الاشتراكي، فتم تصفية عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر وعلي شائع وصالح مصلح في مقر اللجنة، ثم تصاعدت بعدها أعمال العنف وأسفرت عن سقوط آلاف من القتلى والجرحى والمفقودين. انظر: علي الصراف، اليمن الجنوبي- الحياة السياسية من الاستعمار إلى الوحدة، (بيروت، دار رياض الريس، ١٩٩٢م).

بالتالي أصبح اليسار ضعيفاً غير قادر على التأثير في الحياة السياسية، ينتج دائماً تنظيمات صغيرة سرعان ما تزول.

٤- وفي تونس وعلى الرغم من إفساح المجال للحياة الحزبية^(٢)، إلا أنّ السلطة كانت تمنع من توسيع القاعدة الجماهيرية لهذه الأحزاب، ولاحتت الأحزاب التي لم تتقبل العمل تحت وصايتها كحزب العمال الشيوعي التونسي بقيادة حمة الهمامي، وهذا الأمر أدى إلى ضعف التيارات اليسارية.

تراجع دور الأحزاب الشيوعية، ولم يعد لها من صوت إلا في الأوساط النقابية، أو في مؤسسات المجتمع المدني، فكانت كفصيل في الحياة السياسية لا يلحظ بسبب خفوته، حتى إذا ما تحرك الشارع العربي في ثوراته التي انطلقت من تونس، وجد نفسه أمام استحقاق لا طاقة له على المشاركة فيه بفاعلية.

وهكذا، يمكن أن نمدد الحكم على جميع الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي؛ حيث تراجع دور هذه الأحزاب، ولم يعد لها من صوت إلا في الأوساط النقابية، أو في مؤسسات المجتمع المدني، أو عبر مواقف وآراء شخصية لا تبني سياسات عليا للدول، فكانت كفصيل في الحياة السياسية لا يلحظ بسبب خفوته، حتى إذا ما تحرك الشارع العربي في ثوراته التي انطلقت من تونس، وجد نفسه أمام استحقاق لا طاقة له على المشاركة فيه بفاعلية، ويعود سبب ذلك إلى:

١- إن هذه الأحزاب لم تكن مهيأة للعب دور مؤثر في الحراك الثوري، فعلى الرغم من أنّ هذه الثورات حملت تعابير من قاموس اليسار إلا أنّ اليسار لم يكن فاعلاً في ساحتها بسبب الوجع من نتائجها، فالأحزاب اليسارية التونسية خافت من الثورة ونتائجها، فحاولت أن تدخل في تسويات تحفظ لها موقعاً سلطوياً، ولم يخرج عن هذا الأمر إلا شكري

(٢) حزب الكتلة الديمقراطي من أجل العمل والحريات، وهو عضو في الائتلاف الحاكم اليوم، وحركة التجديد وريث الحزب الشيوعي التي تحولت إلى حركة ديمقراطية ذات أصول شيوعية، والحزب الديمقراطي التقدمي الاشتراكي العلماني.

ووفق ذلك ظل يركّز على سلمية الثورة، ويرفض الانتقال إلى العمل المسلح. وأصبحت مواقفه تظهر من خلال هيئة التنسيق لقوى التغيير الوطني الديمقراطي دون تمييز أو اختلاف.

بينما اتجه طرف آخر إلى مفاوضة السلطة، ودخل في تفاوض معها، وشارك بعد الانتخابات البرلمانية بالحكومة، هذا وذهب طرف ثالث مؤلف من حزب الشعب الديمقراطي وحزب العمال الثوري نحو الانخراط بالثورة وانضم إلى الائتلاف المعارض في اسطنبول^(٤)، وقد تطرف هذا التيار، وأيد التدخل العسكري الأجنبي في سوريا.

٢- انشداد اليسار إلى اللغة الأيديولوجية بينما السياق العام للحراك الثوري، كان يميل إلى المطالب المباشرة التي تتعلق بنمط العيش، فهذه الثورات وإن استخدمت مفردات من القاموس اليساري إلا أنها أفرغته من محتواه القديم.

٣- انتماء المنتسبين للتيارات اليسارية إلى الفئة العمرية المتقدمة بالسن، فالأحزاب الشيوعية واليسارية العربية، لم تجدد دماءها منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، فبقيت تعيش على ما ادخرته أثناء مسيرتها السياسية، وتحولت في كثير من الأحيان إلى انتماء وراثي تتناقله العائلات بحكم العادة والاطمئنان.

خاتمة واستخلاصات:

بعد العرض السابق يمكننا أن نصل إلى جملة من الخلاصات تقوّم أداء الأحزاب اليسارية من خلال اختيار قدرتها على التكيف، واستقلالها، وتجانسها:

أولاً: القدرة على التكيف:

يقصد بذلك قدرة الأحزاب الشيوعية واليسارية في ظل الظروف المتغيرة التي مرت بها، وسنقوم بذلك من خلال ثلاثة أبعاد:

(٤) انظر الروابط التالية:

<http://www.kassioun.org/html/index.php>

<http://carnegie-mec.org/publications>

بالعيد وحمة الهامي^(١)؛ اللذان عملا من أجل تغيير بنية الدولة، والسير بالثورة إلى أقصى مدى لها، ولكن هذا الأمر لم يصل إلى هدفه؛ بسبب انقسام اليسار على نفسه، وعدم توحده خلف مشروع سياسي واضح المعالم.

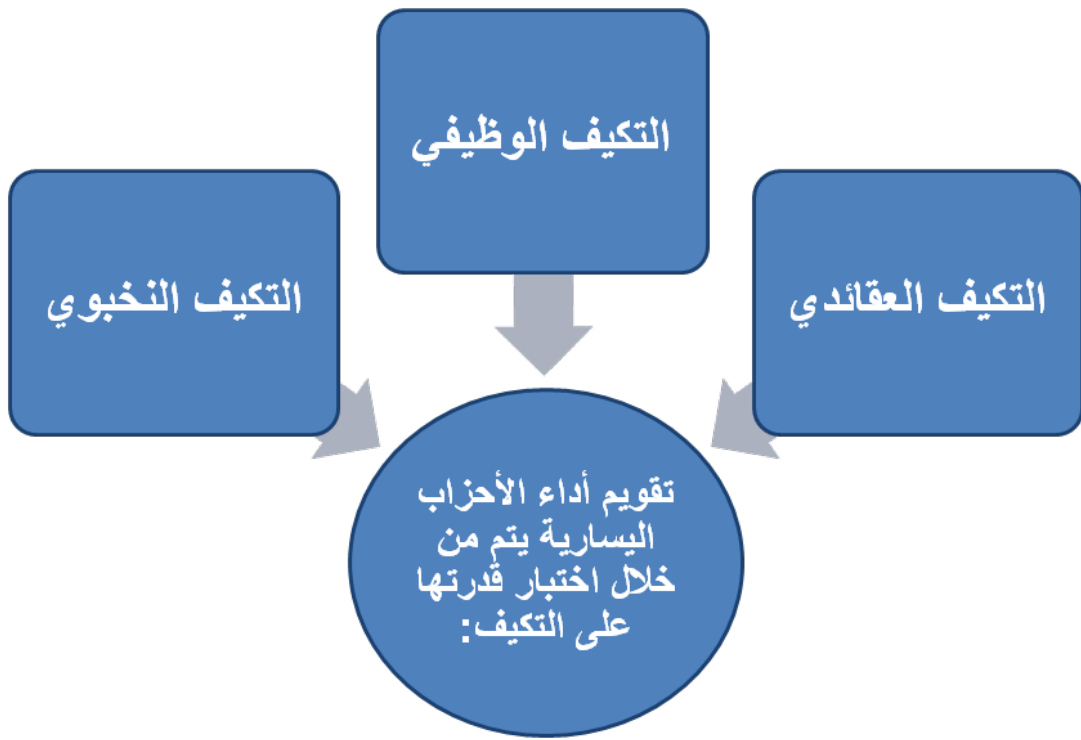
وفي مصر وعلى الرغم من انخراط اليسار في الحراك الثوري، إلا أنه أخفق في تكوين إطار جامع للتيارات اليسارية، فبقي اليسار مشتتاً على أحزاب صغيرة غير فاعلة، وهذه الأحزاب إذا اجتمعت عادت واختلفت لأسباب متعددة، فبعد الاتفاق على إنشاء «التحالف الشعبي الاشتراكي»، خرجت مجموعة منه، وأسست الحزب المصري الديمقراطي الاجتماعي واصفة التحالف الشعبي أنه أكثر يسارية من المفترض، ورفضت منظمة الاشتراكيين الثوريين الاستمرار في التأسيس رفضاً لحل التنظيم والاندماج، وهكذا بدأ التحالف بالتآكل^(٢).

وفي البحرين شارك اليسار في الحراك الثوري، وأقام له خيماً في فعاليات الاعتصام المقام في دوار اللؤلؤ، وتم افتتاح خيمة خاصة لجمعية العمل الديمقراطي (وعد)، وبقرار تنظيمي، وذلك بهدف خلق التواصل مع قوى الشباب في الميدان، والتنسيق مع الأطراف الفاعلة فيه، ولكن بقي اليسار ضعيفاً بالقياس إلى التيارات الأخرى^(٣)، وفي سوريا كان وضع اليسار صعباً قبيل الحراك، نتيجة تشبته، ومشاركة أطراف محسوبة عليه في السلطة، فهو كان يمحور كل نشاطه حول الديمقراطية والحريات بعد مواجهة طويلة مع السلطة أضعفت بنيته، حتى إذا ما اندلعت الأحداث في الشارع مال قسم نحو الاستفادة منها من أجل الضغط على السلطة لكي تقبل الحوار وتقبل تحقيق مرحلة انتقالية نحو الديمقراطية.

(١) سونيا التميمي، مآزق اليسار التونسي، (القاهرة، منتدى البدائل العربي للدراسات، ٢٠١٣م)، الصفحة ٦.

(٢) أيمن عبد المعطي، الثورة المصرية ودور اليسار، (القاهرة، منتدى البدائل العربي للدراسات، ٢٠١٣م)، الصفحة ٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٩.



١- التكيف العقائدي:

أظهر البحث تحولات في النسق العقائدي للأحزاب الشيوعية العربية، ولكنها لم تكن ذاتية ناتجة عن علاقة جدلية بين العقيدة والواقع، فالبنية العامة للرؤية بقيت جامدة لم تطلها يد التغيير، فهي خضعت لنصوص ماركس ولينين أضيفت إليها رؤية الاتحاد السوفييتي بحسب التحولات التي تحصل في دولة القاعدة الأيديولوجية.

فالأحزاب العربية لم تحاول أن تنتج يساراً ينطلق من خصوصية الذات، ونظرتها إلى العالم، وحتى المحاولات التي جرت بهذا الخصوص لم تكن في المسار العام للحزب، وهي تعرضت للنقض وأُثِّمَت بالتحريفية، وحتى اليسار الجديد لم يستطع أن يجدد في الأطر العقائدية، فاعتبر المشكلة في الأحزاب الشيوعية واليسارية يتمثل في انحرافها عن أصول العقيدة، فكانت أكثر راديكالية من الأحزاب التقليدية.

٢- التكيف الوظيفي:

لم تستطع الأحزاب والتيارات اليسارية القيام بحكم

تعبيرها عن سياسات دولية ناتجة عن ميلها لمعسكر دون آخر من القيام بتكيف وظيفي، فهذه الأحزاب عندما كانت تصل إلى مرحلة القوة كانت تتصرف بطريقة سلطوية، كما فعل الحزب الشيوعي العراقي عندما مارس العنف ودخل في صراعات عندما تحالف مع عبد الكريم قاسم، كما أنّ الحزب الاشتراكي اليمني عندما وصل إلى الحكم لم يتكيف مع الدور الوظيفي الجديد، فدخل في صراعات متواترة دفعته في نهاية الأمر إلى القيام بوحدة عشوائية وغير مقصودة.

٣- التكيف النخبوي:

يقصد بذلك قدرة الحزب على تجديد نخبه وقيادته، وفي هذا المجال يلاحظ أنّ الأحزاب اليسارية لم تستطع أن توجد هذا الأمر، فقيادتها المؤسسة بقيت على رأس أحزابها حتى وفاتها، فالحزب الشيوعي السوري بقي خاضعاً لسلطة خالد بكداش حتى وفاته، ثم انتقلت القيادة إلى وصلة رحمة بكداش، وبعد ذلك إلى عمار بكداش، والحزب الشيوعي اللبناني حافظ على قيادته منذ الاستقلال إلى أن استلم الأمانة جورج

مصلحة محدودة.

فالحزب الشيوعي السوري كان صوت الأكراد والأقلية المسيحية في كثير من الأحيان، والحزب الشيوعي العراقي انقسم على نفسه بعد عام ١٩٨٠م على أسس قومية عربية/ كردية، وقُسمت القيادة بحسب المناطق مما أشعر الأقلية الوافدة من الشمال بالتهميش وعدم الفاعلية، وهذا ما يظهر بوضوح من خلال الموقف من عبد الفتاح إسماعيل.

ثالثاً: تجانس التنظيم الحزبي:

وهو يقوم انطلاقاً من وجود آليات تنظيمية داخل الأحزاب السياسية تحافظ على تجانس التنظيم ووحدته، وهنا نلاحظ أنّ الأحزاب الشيوعية العربية التي لم تشهد ولادة طبيعية وبقي جزء كبير منها يعتمد على السرية، حافظت على تجانسها الداخلي بسبب عدم توسع هذه التنظيمات، ولكنّها عندما كانت تتوحد تفقد هذه الميزة، ويصبح كلّ خلاف في وجهات النظر مورداً لصراع كما حصل في حدثو التي تألفت من يسكرا والطليعة والحزب الشيوعي المصري، لكنّها ما لبثت أن انقسمت على نفسها بسبب الخلاف وعدم الثقة بين أعضائها، وحتى الأحزاب التي أخذت الترخيص من دولها عانت من عدم وجود تجانس فيها نتج عنه انقسامات متعددة.

حاوي، واستمر فيها حتى قرر الخروج منها؛ لعدم تلبية الحزب لطموحاته السياسية بعد انقراط عقد المنظومة الاشتراكية، فجميع أعمال التجديد لم تكن ضمن الأطر الحزبية، وهي عادة ما أدت إلى انقسام الأحزاب اليسارية أو دخولها في صراعات دموية كما حصل في الحزب الاشتراكي اليمني.

ثانياً: الاستقلال:

لم تستطع الأحزاب اليسارية والشيوعية التخلص من تابعيتها للحزب الشيوعي السوفييتي، مما دفع هذه الأحزاب للخضوع إلى تابعيات داخلية، كما حصل في العراق عندما فرض على الحزب الشيوعي العراقي التبعية لعبد الكريم قاسم، والدفاع عنه على الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له، والذي تجلّى بشكل واضح بمنع الترخيص عنه، كما نلاحظ هذا الأمر في مصر عندما فرض على حركة حدثو الاندماج بالاتحاد الاشتراكي العربي على الرغم من وجود قياداتها في السجون المصرية.

ولم تستطع الأحزاب الشيوعية واليسارية العربية أن تعزل نفسها عن الطوائف الاجتماعية والجماعات الخاصة، لتتحول إلى أحزاب عابرة للطوائف والجماعات، فهي على الرغم من نجاحها الجزئي في هذا المجال، إلا أنّها ارتكبت أخطاء عبر تعبيرها عن

معلومات إضافية

الشيوعيون العرب وقضية فلسطين:

تعتبر كارثة فلسطين من أكبر كوارث التاريخ بوجه عام، والتاريخ العربي والإسلامي بوجه خاص؛ لأنها أفضع خطب حلّ بالعرب المسلمين في تاريخهم الحديث، وأعنف صدمة تلقوها منذ قرون، وهذه الكارثة عميقة الجذور.. بعيدة الآثار.. دائمة الأخطار.

ومع ذلك كان الشيوعيون العرب يرون في الحرب التي كان يخوضها أبناء فلسطين ومن معهم من شرفاء العرب والمسلمين.. حرباً عنصرية دينية يجب إيقافها حالاً.. وأن الجيوش العربية جيوش عدوانية محتلة يجب تسريحها فوراً، وكل من يتطوع في الحرب لقتال اليهود إنما يخون الحركة التقدمية الإنسانية.

لقد أعطى الشيوعيون العرب في موقفهم من حرب (سنة ١٩٤٨م) صورة صارخة للخزي والخيانة، وذلك في الحقائق التالية:

١- في كانون الأول سنة ١٩٤٧م، نظم (الحزب الشيوعي العراقي) مظاهرة حشد فيها كل قواه وطاقاته في الشوارع؛ تأييداً لقرار التقسيم، ومطالباً بإقامة دولة لليهود في فلسطين، وتصدّر المظاهرات شيوعيان: أحدهما عربي اللسان، والآخر يهودي.. رفعاً أيديهما متشابكتين عالياً.. كرمز للصدقة والمحبة العربية اليهودية.

٢- في (١٥ أيار سنة ١٩٤٨م) دخلت جيوش الحكومات العربية فلسطين لتمنع بالقوة تنفيذ جريمة اغتصاب فلسطين، وإقامة دولة يهودية، ومهما قيل في الحكومات العربية التي قادت تلك الحرب آنذاك.. فمما لا شك فيه أن دخول جيوش الحكومات العربية إلى فلسطين كان تعبيراً عن السخط العربي الجارف الذي عمل في نفوس الشعب العربي في كافة أنحاء الوطن العربي، ضد تمزيق فلسطين، وإقامة دولة لليهود فيها. وفي تلك الفترة الحاسمة، وفي هذا الجو الملهب عقد (الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان) اجتماعاً مشتركاً في مدينة بيروت، ثم أصدر بياناً مشتركاً تحت عنوان: (بيان إلى الشعوب العربية)، حدد فيه موقفه من الحرب بقوله:

أ- إنها حرب دينية عنصرية.

ب- إن على الجيوش العربية أن تنسحب من فلسطين فوراً.

٣- وفي هذه الفترة كذلك أصدر الحزب الشيوعي العراقي نشرة داخلية لأعضاء الحزب تحت عنوان: (توجيهات بشأن الحرب الفلسطينية القذرة) جاء فيها:

أ- على الديمقراطي العربي أن يحارب، ويشجب الحرب الفلسطينية القذرة.

ب - على الديمقراطي العربي أن يتعاون مع القوى الديمقراطية في إسرائيل لمنع هذه الحرب. (وقد نشر نصوص هذه الوثائق والنشرات الأستاذ عبد الهادي الفكيكي في كتابه: ثورة ١٤ تموز بين الانقلاب الشيوعي وثورة الموصل).

الحرب الفلسطينية القذرة هذا هو الوصف الذي أطلقه الشيوعيون العراقيون على الكفاح الذي كان يخوضه الشعب الفلسطيني العربي المسلم للحفاظ على وطنه.

ثم إن القوى الديمقراطية في إسرائيل التي يجب على المواطن العربي أن يتعاون معها هي عصابة الأرغون، شتيرن، أو الهاغاناه. أم لعله الحزب الشيوعي اليهودي الذي وجد أن أفضل طريقة يدلل بها على ديمقراطيته هي أن يخوض الحرب جنباً إلى جنب مع عصابات اليهود ضد العرب؟!

٤- أما الشيوعيون الفلسطينيون رفاق الشيوعيين اليهود القدامى؛ فقد كانوا ينظرون بعين الإكبار إلى إخوانهم الشيوعيين اليهود الذين يقاتلون ببسالة (الجيش العربية المحتلة لوطنهم)، وهكذا بينما قضت الخنادق الواحدة -التي كان الشيوعيون يحاربون فيها جنباً إلى جنب مع كافة اليهود والمنظمات اليهودية الأخرى- على آخر أثر من خرافة التفريق بين اليهودية والصهيونية في فلسطين. وبينما وجد المقاتلون العرب أنه لم يكن هناك فرق بين رصاصة صهيونية ورصاصة يهودية، كان الشيوعيون الفلسطينيون مشغولين بكتابة المنشورات التي تطالب بوقف الحرب ضد اليهود.. وفعلًا قاموا في ١١/٧/١٩٤٨م، أي: بعد يومين من انتهاء الهدنة الأولى واستئناف القتال بتوزيع منشورات على السكان والجنود يهاجمون فيها استمرار القتال، ويطالبون بوقف الحرب حالاً.. والاعتراف لليهود بحق إقامة دولة في فلسطين، وفيما كانت الصحف العربية تضج بأخبار القتال الدائر.. ظهرت صحيفة (الاتحاد) لسان حال (عصبة التحرر الوطني) تقول:

(إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة مع حكومة إسرائيل والحكومات العربية، ولكن على أي أساس؟ على أساس سحب الجيوش وتسريحها.. إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة تستهدف إنقاذ عرب فلسطين من الاحتلال الأجنبي).

ملاحظة: أليس هذا ما حصل في أوسلو؟! وتحدد الصحيفة ما تقصده بالاحتلال الأجنبي فتقول: (إن احتلال جيوش الحكومات العربية الممثلة للاستعمار هو احتلال أيضاً!!)، ونشرت هذه المقتطفات في صحيفة الاتحاد. الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي الفلسطيني (عصبة التحرر الوطني) في العدد الصادر بتاريخ ٢٢/١١/١٩٤٨م.

الحزب الشيوعي الفلسطيني:

هو أول حزب شيوعي تأسس في المنطقة عام (١٩١٩م)، وكان جميع عناصره من اليهود الروس الذين حملوا بذور الفكرة الأولى إلى فلسطين. وفي عام ١٩٢٤م تأسس الحزب الشيوعي في لبنان؛ حيث ساهمت بعض العناصر اليهودية الوافدة من فلسطين في إنشائه، وهي التي أوكلت إليه مهمة نشر الفكرة الشيوعية، والإشراف على تنظيم خلاياها في منطقة الشرق الأوسط.

وفي نهاية عام ١٩٢٥م كانون الأول (ديسمبر) انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي، وانتخب لجنته المركزية من سبعة أعضاء، وظل تبير اليهودي الروسي محتفظاً بأمانة الحزب العامة، وكان يعرف عادة باسم شامي؛ حيث درج معظم الأعضاء القياديين في الحركات الشيوعية على

استعارة أسماء أخرى، وهو تقليد يهودي، وقد ظل الصراع محتدماً في الحزب منذ عام ١٩٢٨م حتى عام ١٩٣٢م، حين تمكن خالد بكداش من أن يبلغ مركز زعامة الحزب بترشيح جاكوب تيبير المبعد إلى فلسطين وتزكيته، وتقدم معه وجوه ثلاثة جديدة، هم: نقولا شاوي، وفرج الله الحلو، ورفيق رضا الذي قُدِّر له أن يلعب بعد ثلاثين عاماً دوراً كبيراً في فضح أسرار الحزب واتصالاته.

المصادر:

١- مقال/ د. سامي عطا الجيتاوي، متاح على موقع صيد الفوائد على الرابط التالي:

<http://www.saaaid.net/mktarat/flasteen/263.htm>

٢- مجلة البيان، العدد ٩٢ صفحة ٨٩.

